صورة من صور إدارة الموارد البشرية في الفقه النبوي

(الصحابي أنس بن مالك أنموذجا)

سامر الشحنة البستاني

باحث

إدارة الموارد البشرية هو مصطلح جديد يُعنى بشؤون العمال في المعامل والمؤسسات , وقد طرح هذا المفهوم في منتصف القرن التاسع عشر في المصانع الانكليزية من قبل بعض رجال الاعمال حيث تنبهوا إلى ضرورة الاهتمام بتحسين ظروف العمل وتوفير الظروف المناسبة التي تتناسب مع حاجة العاملين ليكونوا أكثر عطاءً.

من هنا نميز أمرين في التعامل الغربي مع العمال:

الأول: تطبيق إدارة شؤون العاملين والرعاية وحسن التعامل كان بعد القرن التاسع عشر أي بوقت متأخر في حين كان المسلمون قد طبقوه منذ قرون منذ بعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

الثاني: الرعاية وحسن التعامل الغربي مع العمال لم يكن نابعًا عن إنسانية ورحمة بل عن نفعية ومصلحة محضة كي يحقق العامل أكبر جهد وأكثر ربحية ممكنة وأداء ممكن ليصب ذلك في مصالحهم وزيادة ثرواتهم فالرأسمالية دينها وديدنها المال والربح المادي ولا قيمة للإنسان فيها.

حقيقة لسنا هنا بصدد المقارنة بين التعامل الغربي والإسلامي مع العمال، فمن يرجع إلى كتب التاريخ يجد هذا جليًا واضحًا، لكن نحن هنا لتسليط الضوء على تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع عماله، ونختار ومضة من ذاك التعامل، ألا وهو تعامله مع الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه الذي خدم النبي صلى الله عليه وسلم (أي توظف عند النبي) تسع سنوات، وفي رواية أخرى عشر سنوات وكان ملاصقًا للنبي صلى الله عليه وسلم في بيته وسفره، وسنكتفي ببضع مواقف فقط من تلك الفترة.

كثيراً ما نسمع عن شخص أنه حسن الخلق والتعامل، وإذا عاملته تجده كذلك، لكن المشكلة عندما تطلع على علاقته مع عماله أو موظفيه تجده عكس ذلك تمامًا وكأنما حُسن الخُلق والمعاملة يتجزأ أي: محسنا في مكان ومسيئا في مكان آخر. بينما حُسن الخُلق كل لا يتجزأ.

وقلما تجد عاملا يمدح ويثني على رب عمله، وهذا ما وجدنا عكسه بحديث الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: (خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، والله ما قال لي أفًا قط، ولا قال لي لشيء لم فعلت كذا، وهلا فعلت كذا).

إن في هذا الحديث فوائد وقواعد بالتعامل مع العمال نكتفي بذكر بعضها:

قوله: (ما قال لي أفًا قط)، وأفًا أقل ما يعبر عنه عن التضجر، ومع ذلك لم يقلها الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يظهر تضجره. وإذا أسقطنا تلك العبارة على حال أرباب العمل في واقعنا تجدها مغيبة غيابًا تامًا فتجده دائما ينهر ويصرخ بوجه عماله على أتفه الأمور ويهيل عليهم أنواع وألوان الشتائم والإهانات بقصد إذلال العامل وإرهابه وفرض شخصيته ليرضي نفسه المريضة المتعالية وكأن العمال خدمًا عنده وفي ظنه أنه هو المتفضل عليهم، لأنه هو الذي يرزقهم ويؤويهم وفي ذلك التفكير منافاة للعقيدة والايمان، فالرزاق هو الله، وكل من العامل ورب العمل بحاجة الآخر. وقد أشارت لذلك الآية الكريمة: **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** (الزخرف: ٣٢)

وذكر الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعامله معاملة لطيفة أبوية فيقول له: يا بني، ونعود للحديث عند قوله رضي الله عنه: (ولا قال لي لشيء لم فعلت كذا، وهلا فعلت كذا)، نستشف من هذا القول أن كثرة التأنيب والتدقيق على العامل والحد من حريته في التصرف فيها نوع من كبت العامل وعدم أريحيته بالعمل ولا يستطيع أن يبدع أو أن يعطي كل ما عنده من مهارات أوأفكار، فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أعطى سيدنا أنس رضي الله عنه مساحة وحرية في التصرف، ولاشك أنه سبقها توجيه ووضوح بالتعليمات.

ومن هذا المعنى ننتقل إلى حديث آخر وموقف آخر في فن التعامل النبوي يروي الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه في الحديث المروي في صحيح مسلم، قال: (كان الرسول صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خُلقًا، فأرسلني يومًا بحاجة، فقلت: والله لا أذهب وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله صلى الله عليه وسلم، فخرجت حتى أمرّ على صبيان، وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله صلى الله عليه

وسلم، قد قبض بقفاي من ورائي، وقال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: **(يا أنيس: أذهبت حيث أمرتك؟)** قلت: نعم، أنا أذهب يا رسول الله). نتبين من هذا الحديث مزاح سيدنا أنس رضي الله عنه مع الرسول صلى الله عليه وسلم، حينما قال: (والله لا أذهب)، ورد فعل الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لم ينهره مقابل هذا المزاح وتقبله منه وحتى عندما وجده مشغولاً عن فعل ما طُلب منه لم يُوبخه ولم يُعنفه بل تعاطى مع الموضوع بابتسامة، وحتى لاطفه بقوله: **(يا أنيس)**، فللأسف إذا قارنا ما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم وما يفعل أرباب العمل في أيامنا هذه لوجدنا العجب العجاب من ظلم وقسوة، فلو حدث هذا الموقف مع أحد عمالهم لكان مصيره العقوبة المادية أو التسريح من العمل، وهنا نلحظ فائدة من الحديث، أن الرسول صلى الله عليه وسلم صحيح أنه يوكل المهمات لأنس ويعطيه مساحة من الحرية بالتصرف لكنه لا يترك أعماله بدون متابعة أو مراقبة لتحقيق العمل ونجاحه. وهنا أشير بنصيحة لأرباب العمل صحيح كما أسلفنا أن يُعطى العامل أريحية نفسية ومساحة من الحرية لأداء العمل لكن لا يعني ذلك الإهمال وترك العامل بدون متابعة ومراقبة لتفادي أي أخطاء أو تلكؤ بالعمل تؤدي لفشله.

وفي نهاية المطاف أهمس في أذن أرباب العمل بأن يرحموا ويعتنوا بعمالهم، وكما قال رسول صلى الله عليه وسلم: **(كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)**.

فالعمال عندهم رعية وهم مسؤولون عنهم أمام الله إن قصروا أو ظلموا، لأن العامل جاء عندهم لهدف نبيل وهو العمل كي يكفي عائلته حاجاتها ويعيش حياة كريمة وأن لا يمد يده لأحد ولا يمدها على مال أحد بالحرام. واعلموا وتيقنوا أن الذي وزع الأدوار هو الله، ومن الممكن أن يكون دوركم مكان العامل وهو رب عملكم وتيقنوا أنكم لستم متفضلين عليه وترزقونه، بل الله يرزقه، ورزقه مضمون، وقد أجرى رزقه عل أيديكم وكنتم أنتم سببًا وطريقًا لا غير، فلا يصبكم الغرور والتعالي.